

الرؤية الشعرية في الشعر الجزائري المعاصر

The Poetic Vision in the Algerian Contemporary poetry

سمية الهادي¹*¹المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف / ميله (الجزائر): sal_ha20@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2023/12/27

تاريخ الإرسال: 2022/07/20

الملخص:

الكلمات المفتاحية:

ترتسم نظرة الشاعر تجاه وقائع الحياة، ومختلف ظروفها؛ من خلال رؤيته الشعرية التي تتجسد فيها ملامح عقيدته، وفكره الذي يؤمن به. وتسعى هذه الدراسة إلى الوقوف عند الرؤية الشعرية في الشعر الجزائري المعاصر. ولأن مجال المقال لا يسمح برصد كل التظاهرات بتفاصيلها (الاجتماعية، الدينية، الثقافية، الصوفية، السياسية، التأملية، الإصلاحية...) فقد تم اختيار السياسية، وكذا الدينية والتأملية بهدف تشكيل تصور عام للرؤية الشعرية لدى الشاعر الجزائري المعاصر.

الرؤية؛

الرؤيا؛

الرؤية السياسية؛

الرؤية الدينية؛

الرؤية التأملية؛

ABSTRACT:**Keywords:**

vision,
perspective,
political
perspective,
religious
perspective,
speculative
perspective,

The worldview of the poet towards the realities, and circumstances, of life is reflected in his/her poetic perspective through which his/her dogma and beliefs are conveyed. The current study aims at exploring the poetic perspective in the Algerian contemporary poetry. Because the scope of this paper does not allow us to cover all the manifestations (social, religious, cultural, Sufi, political, contemplative, reformist, etc.) of this poetry in detail; only its political, religious and speculative sides are to be considered with the purpose to form a general picture on the poetic perspective of the Algerian contemporary poetry.

* سمية الهادي

مقدمة:

شكلت الظروف والبيئة التاريخية خلفية، ومرجعية استند إليها الشعر الجزائري في مختلف طرائقه التعبيرية؛ ذلك أن التحولات التي شهدتها الجغرافية الجزائرية على مرّ قرون من الزمن، تركت بصمتها في التجربة الشعرية الجزائرية. ومثلت الأحداث التاريخية في مرحلة الاحتلال الفرنسي بما تحمل من مقاومة للمستعمر، ومجاهته بمختلف الوسائل الفكرية والإصلاحية، والسياسية، والمسلحة، وكذا مختلف الظروف الاجتماعية، والفكرية، والحضارية المعاصرة ركيزة استندت إليها رؤية الشاعر الجزائري المعاصر؛ المعتز بتاريخه، الرافض طمس هويته وجذوره، والمعاش لتغيّرات البيئة التي يحيا فيها، ويتفاعل معها.

لقد أدرك الشاعر الجزائري تركيبة مجتمعه، وعمق جذوره التاريخية، وكانت رؤيته الشعرية مبنية في الغالب على معطيات حضارية حفظها التاريخ الجزائري على مرّ الأزمان. واستمدّ منها الأساس الذي يبنى من خلاله رؤيته المعتمدة على الانطلاق من الماضي لقراءة الحاضر، واستشراف المستقبل.

ونهدف من خلال هذه الدراسة إلى الوقوف عند أهمّ التظاهرات التي عكستها الرؤية الشعرية في الشعر الجزائري المعاصر -ولأنّ مجال الدراسة لا يسمح بالتطرق إلى كل أبعاد الرؤية -فقد قمنا برصد ملامح الرؤية السياسية، والدينية، والتأملية، مع الإشارة إلى الأبعاد الاجتماعية، والثقافية، والإنسانية التي تندرج تحت هذه العناوين، وذلك انطلاقاً من مجموعة من التساؤلات نلخصها على النحو الآتي: ما المقصود بالرؤية الشعرية؟ وماهي أهمّ تظاهراتها في النص الشعري الجزائري المعاصر؟ وهل استطاعت تلك الرؤية استيعاب مختلف التحولات الفكرية، والسياسية والاجتماعية، والدينية من خلال حركية النص الشعري وفق التحقيق الزمني الذي حددته الدراسة. والذي يعد مرجعية؟

1 - الرؤية الشعرية في الاصطلاح النقدي:

قد يتطابق مفهوم (الرؤية) و (الرؤيا) عند بعض النقاد، ولكن الحقيقة أن هناك حداً فاصلاً بينهما، ذلك أن الرؤية مرتبطة بتصور واقعي تجاه تفاصيل الحياة التي يعيشها الشاعر، أو المواقف التي يتبناها كترجمة لما يراه مجسداً في مختلف الجوانب الفكرية، والسياسية، والدينية، والثقافية التي يواكبها، ويتفاعل مع متغيراتها. في حين أن الرؤيا في الغالب تتجسّد من خلال الخيال، وهي مرتبطة بالمنام، أو بأحلام اليقظة.

ويرى أدونيس أن الرؤيا أساس الشعر، ومن دونها لا تتحقق العملية الإبداعية. وهي عنده ما يرى في النوم أو الرؤيا بالقلب. وتكون الرؤيا، وفق هذا السياق، "ضربة تزيج كل حاجز، أو هي نظرة تخترق الواقع إلى ما وراءه. وهذا ما يسميه ابن عربي علم النظرة. وهو يخطر في النفس كلمح البصر"¹. كما أن أدونيس يوضح الفرق بين رؤية الشيء بعين الحس، ورؤيته بعين القلب، و"هو أن الرائي بالرؤية الأولى إذا نظر إلى الشيء الخارجي يراه ثابتاً على صورة واحدة لا تتغير. أما الرائي بالرؤية الثانية فإذا نظر إليه يراه لا يستقر على حال، وإنما يتغير مظهره وإن بقي جوهره ثابتاً."²

في حين يراها نقاد آخرون كمحيي الدين صبحي بأنها "تعميق لمحة من اللحظات، أو تقديم نظرة شاملة وموقف من الحياة يفسر الماضي ويشمل المستقبل"³.

وبالعودة إلى مفهوم الرؤيا من خلال التصورات السابقة، يبدو أن الموقف، أو النظرة العامة تجاه وقائع الحياة هي ما تتفق بخصوصه آراء النقد سالفه الذكر، و"الرؤيا" بهذا تتطابق في معناها مع مفهوم "الرؤية"، ولكن أصحاب القصيدة الحديثة يفرقون بين "الرؤية التي هي عندهم نظرة الشاعر التقليدية المعروفة إلى الوجود، وبين الرؤيا التي يذهبون بها قريبا من الحلم الذي يصطنعه السرياليون في قصائدهم"⁴. وتكون آلياتها مبنية على أساس الخيال، والرمز، والأسطورة، والتناص.

والشاعر العربي الحديث يعيش في مناخ اجتماعي وحضاري منفتح يسمح له بالإبحار وفق الرؤيا الشعرية، متجاوزا كل حدود تعيق تجربته الشعرية. وتفتح أمامه التساؤلات الفكرية والاجتماعية، وحتى السياسية والاقتصادية تماما كافتتاح الحدود الجغرافية في عصرنا الحالي. فالشاعر العربي "قد يلتقي مع رؤيا القرن العشرين عند الغرب، وقد يلتقي مع رؤيا القرن التاسع عشر عند شعراء البلدان الاشتراكية، ولكنه في النهاية يحس إحساسا عميقا بمسافة ما بينه وبين كل من الفريقين. ذلك أن الاختلاف بين رؤيا القرن الماضي والرؤيا الحديثة في الشعر ليس اختلافا حضاريا، أي ليس اختلافا في النوع، وإنما هو اختلاف في وجهة النظر، كما أنه اختلاف في درجة التطور الاجتماعي، وكلاهما عنصران في تكوين "الرؤيا الشعرية"⁵.

هذه النظرة العميقة، والباطنية المعتمدة على آليات الخيال، والغوص في صميم الحياة الإنسانية؛ هي ما نسميه الرؤيا.

من هنا، يبدو ارتباط الرؤية بالواقع، واعتماد الأديب آليات تتناسب مع هذا الواقع، من شأنها تحليله، ورسمه للمتلقي وفق المقصدية المنتظرة من هذه الرسالة، وهو ما يفرق بينها وبين الرؤيا التي لا تخلو من سيطرة الخيال، والتي "تقوم على التجربة الباطنية، والتجربة الباطنية لا تخلو من شطحات واسترسالات فكرية تأملية تُري ما لا يرى، وتُسمع ما لا يُسمع. والمتوقع أن يكون المعطى الشعري لهذه الشطحات والاسترسالات مبهما. ولن تكون رؤيا. ولن يكون الشاعر رائيا إلا بإحداث بلبله متصلة حادة في حواسه"⁶.

ولأن دراستنا تهدف إلى الوقوف عند رؤية الشعراء الجزائريين المعاصرين، ومواقفهم تجاه مختلف القضايا التي عايشوها، وبالنظر إلى طبيعة، وخصوصية الشعر الجزائري؛ فقد ارتأينا في دراستنا هذه اعتماد مصطلح "الرؤية"، ذلك أن الأدب تعبير بالكلمة عن رؤية الأديب لواقعه، وأن الأديب بعمله الأدبي يعيد تشكيل الواقع ويختار منه ما يتلاءم مع رغبته في الكشف عن تلك الرؤية. وأن هذه الأخيرة تكشف عن إدراك الأديب لعلاقات الواقع، كما تتضمن تخيله للصورة التي ينبغي أن تسود هذه العلاقات في المستقبل، وأن رؤية الأديب كلما كانت أكثر عمقا وحساسية وذكاء كلما كانت أقدر على كشف القوى التي تعيق حركة الواقع وتقهّر إنسانية الإنسان.⁷

والشاعر الجزائري في عصرنا الحديث يلتزم برؤية قوامها تصوير الواقع بعيدا عن السطحية التي قد يتصورها البعض، وهي رؤية تنبأها للخوض في تفاصيل هذا العالم "ليخرجه قضية مجسدة في فضاء مادي، في إيقاع وصورة.

هي القدرة على تحويل الزمن البكر المظلم، المشوش إلى زمن هندسي، إيحائي، وهي الإلمام بأبعاد التجربة في أصقاعها البعيدة وبعثها وجودا واقعيا. فالرؤية تتجاوز للواقع دون الانسلاخ الشامل منه".⁸

فالرؤية الشعرية إذن هي رسم لملامح العالم، وللتجربة الإنسانية بكل تفاصيلها، وفي جميع نواحيها؛ كما رآها الشاعر، ببصره، وبصيرته، ومثلما استقبلها بحواسه، وأحاسيسه، هي تفاعل صادق، وعميق، ترك أثره في نفسية الشاعر، فترجمها من خلال عملية إبداعية، يأخذ فيها الجانب الفني حيزاً، ولكن الرؤية الشعرية تأخذ مركز الصدارة فيها.

2- مظهرات الرؤية الشعرية في الشعر الجزائري المعاصر:

اصطبغت الرؤية الشعرية لدى الشعراء الجزائريين بملامح اجتماعية، سياسية، ثقافية، دينية، وتأميلية، وكذا صوفية، ولأن مجال المقال لا يسمح بالتفصيل في كل هذه النواحي بالشكل اللازم، فستقتصر الدراسة على الرؤية السياسية، والدينية، وكذا التأملية في الشعر الجزائري.

2-1- الرؤية السياسية:

لقد احتضن الشاعر الجزائري القضايا السياسية التي آمن بها، وكفلت تجربته الشعرية رسم المبادئ التي اعتنقها، وكان الوضع السياسي في الجزائر زمن الاستعمار عاملاً حاسماً في دخول الشاعر الجزائري معترك السياسة وتقلباتها. كما أنه آمن بحقه في الحرية، وبشرعية آماله، وطموحه بالعيش في وطن كل شبر فيه حرّ. ينفس فيه نسيم الحرية أينما ذهب. ومن هنا تشكّلت رؤيته السياسية المبنية على قناعة تحقيق الحرية. ولم تتوقف هذه الرؤية عند حدوده الجزائرية بل انفتحت على كل أفق يسعى شعبه لنيل حريته.

وبالعودة إلى الشعر الجزائري المعاصر نلمس رؤية سياسية بألوان إنسانية تصرح بحق الشعوب في نيل حريتها، كما نلمس انتماء الشاعر الجزائري في رؤيته السياسية إلى وطن أكبر هو المغرب العربي ثم الوطن العربي والإسلامي. وانطلاقاً من مبادئ الحرية والانسانية، والانتماء المغاربي، والعربي، والإسلامي تبلورت الرؤية السياسية للشاعر الجزائري المعاصر. وبالعودة إلى الشعر الذي قيل زمن الاحتلال الفرنسي نلاحظ يقين الشاعر الجزائري، وقناعته بحرية التعبير عن آرائه السياسية، وأنّ هذا المستعمر لن ينال منه بترهيبه، أو سجنه وقد نشرت صحيفة النجاح أبيات ابن حفيظ موسى التي يقول فيها:

هُمُوا زَعَمُوا أَنِّي اقْتَرَفْتُ جَرِيْمَةً بَهَا شَوْهُوَا عَرْضِي وَرَاعُوا بَهَا أَهْلِي
وَمَا عَجَبِي مِنْ زَجِي السَّجْنِ إِنَّمَا عَجِبْتُ مِنَ الظُّلْمِ الْمَرْحِ وَالنَّكْلِ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنِّي عَدُو فَرَنْسَةٍ أَلَيْسَ لَهَا فَضْلٌ عَلَى كُلِّ ذِ فَضْلٍ⁹

حرية يسعى الشاعر إلى الوصول إليها في حضن وطن عشقه حتى الممات، وهي رؤية سياسية صرح بها كثير من الشعراء الجزائريين الذين تحملوا بسببها الظلم، والتنكيل بهم وبأهاليهم، ويعلن حمود رمضان أنه لا يخاف السجن في سبيل الوطن:

سَمِعْتُ أَنَّ السَّجْنَ أَضْيَقُ مِنْ قَبْرِ فَأَلْفَيْتُ قَعْرَ السَّجْنِ أَحْسَنَ مِنْ قَصْرِ

فماذا يفيد القصر والقلب حائر وماذا يضر السجن من كان ذا قدر¹⁰

استمدّ الشاعر الجزائري رؤيته السياسية من حبه لوطنه، فقد كان يؤمن أن الوطن هو الحضن الذي يعود إليه متى ما بحث عن الأمان، وعن الكرامة. فكان يفرح لانتصاراته، ويبكي لهوانه. ويصور الشاعر المولود الزريري في قصيدة بعنوان " فيا وطني " حبه للوطن، والبكاء على أوضاعه:

فيا وطني لم آل جهدا وإنما رأيت زماني مع زمانك آتيا
فكم نصب لي في هواك وما انثني ضميري وقد أبديت نفسا عصاميا¹¹

ولأنّ الوطن هو النواة التي تتمحور حولها الرؤية السياسية للشاعر الجزائري، فقد تجسدت في هذه الرؤية كل التيارات التي سعت للنهوض بهذا الوطن، وبين التوجه الديني الإسلامي، أو العلماني، أو الثوري امتدت الجسور سعيا لنماء الوطن، فيقول محمد اللقاني في الحث على الوحدة الوطنية:

يا أيها الوطني ها كفي فخذ بيدي وناد
في أمة لولاك أمست في الورى خيرا معاد
إن السعادة كلها بنت التضامن والوداد¹²

وانفتحت الرؤية السياسية للشاعر الجزائري على المناخ العالمي، وبخاصة على ما قد يؤثر في القضايا الوطنية، فوجدناه ملما بمواقف الدول تجاه بلده، وسجلت أشعاره تلك المواقف، فمفدي زكريا مثلا ندّد بمواقف الأمم المتحدة غير العادلة تجاه القضية الجزائرية زمن الاحتلال الفرنسي في قصيدة " أكذوبة العصر ":

سوق يُباع ويُشترى في معابرها حق الشعوب لنصّاب ومحتكر
كم خان فيها قضايا العدل ناصعة قوم يسوقهم الدولار كالبقر
هذا يناصر داعي الزور مجتهدا وذاك يمسك في خوف وفي حذر¹³

والرؤية السياسية لدى الشاعر الجزائري المعاصر هنا، محمّلة بأبعاد مغاربية، عربية، إسلامية، فنراه حاضرا في كل المناسبات المؤثرة في حياة الشعوب التي يستشعر انتماءه إليها. ذلك أنّ الشاعر الجزائري يملك من الوعي السياسي ما جعله يقتنع بأنّ مصير الشعوب العربية، والإسلامية مشترك بشكل أو بآخر، وهذه القناعة شكلت أساس الرؤية السياسية عند بعض الشعراء، ومفدي زكريا أبرز هؤلاء، حيث شغلت القضايا السياسية للوطن العربي تفكيره، ومثلت آمال شعوبه آماله، وأثقلت همومهم فؤاده، وهو القائل:

بلاد المغرب العربي شرق وكانت قبلة العربي شرقا
فحيوا في بني بغداد شعبا زكا في الخالدين وطاب عرقا
وحيوا مصر موطن كل حر وحيوا في أمجادها دمشق¹⁴

ولأنّ ما يحدث في المشرق العربي، يصل صداه إلى المغرب العربي. فقد مثّلت القضية الفلسطينية، محور النضال لدى الشاعر الجزائري، وشكّلت فلسطين في معتقده الوطن المسلوب الذي لا تكتمل الحرية، والاستقلال دون تحرّره من عدو لا يرحم، احتل الأرض، وقتل ونكّل، وشرّد أصحابها، فقال محمد العيد في نكبة فلسطين:

فلسطين العزيزة لا تراعي فعين الله راصدة تراعي
وحولك من بني عدنان جند كثير العدّ يزأر كالسباع¹⁵

وترتسم ملامح الرؤية السياسية للشاعر الجزائري وفق المعتقدات، والمبادئ التي يؤمن بها الشعب الجزائري، والمتمثلة في وحدة الوطن، وتقديس كل شبر فيه، مع احترام حقوق الشعوب في حريتها، وتقرير مصيرها، والإيمان بالانتماء إلى الوطن العربي، وهي الرؤية التي جسدها من خلال أشعاره.

2-2- الرؤية الدينية:

مثّل الدين مكوناً هاماً من مكونات الشخصية الجزائرية، وجسّدت الرؤية الدينية لدى الشاعر الجزائري المعاصر ذلك، فقد كان يصرّح بعقيدته الإسلامية، وبالمبادئ التي يفتخر بانتسابه إليها، وإيمانه بها. وبالعودة إلى نصوص الشعر الجزائري المعاصر، تتلبس الرؤية الدينية بمظاهر مختلفة بحسب المرجعية الفكرية للشاعر. فنجدها أحياناً رؤية دينية تهدف إلى التصريح بمبادئ الدين الإسلامي عند بعض الشعراء، ونجدها عند شعراء آخرين بمسحة إصلاحية، حيث يقدم الشاعر رؤيته الدينية، ساعياً إلى التأكيد على أنّ الإسلام هو السبيل إلى بناء المجتمع، وإصلاح الأمة. في حين تتلبّس الرؤية الدينية عند فئة من الشعراء بمسحة صوفية، تحمل في طياتها الحبّ الإلهي، وحبّ الرسول صلى الله عليه وسلّم، وآل بيته، وطلب الشفاعة من النبي الكريم.

ومن أمثلة التصريح بالمبادئ الإسلامية، والتأكيد على الإيمان بها، قول محمد العيد:

علّموا أمة الجزائر فالعد لم دليل لخيرها وزمام
علّموها ديناً من الله سمحاً ليس فيه إصر ولا إرغام¹⁶

ويقول الشاعر أحمد سحنون في الإسلام الذي به ارتقى حال الأمة:

إن دين الإسلام دستور من شرعه للعباد حقاً وصدقاً
عجبا كيف يترك الناس ما يجعلهم سادة ويرضون رقاً؟
من هنا ندرك الحقيقة للإنسان فهو الضعيف فكراً ونطقاً¹⁷

وعن فضل يوم الجمعة التي يعدّها المسلمون عيداً من أعيادهم الدينية، ومظهرها من مظاهر الإسلام قال أحمد سحنون:

ليس في الأيام ما يفضله أفضل الأيام يوم الجمعة
وحدة الأمة عنوان على أنّها في القمة المرتفعة¹⁸

وتحمّلت الرؤية الدينية عند بعض الشعراء برسالة إصلاحية تسعى إلى النهوض بالأمة الإسلامية من خلال العودة إلى معالم الدين التي بلّغها النبي صلى الله عليه وسلّم، وقد كتب الشيخ المولود بن الموهوب منظومة في البدع

تقع في واحد وسبعين بيتا تصوّر انغماس المجتمع في مناخ البدع، والابتعاد عن العقيدة الإسلامية الصحيحة في حقبة الاحتلال الفرنسي استهّلها بقوله:

أضاعوا عرضهم والمال حباً لبنت الحان فازدادوا جنونا
تواصوا بالتنافر فاطمأنت لحقدهم قلوب الكائدينا¹⁹

ويجسد أبو اليقظان تفاصيل الحياة في المجتمع الإسلامي الذي لم يعد الإسلام مرجعيته، ولا قانونه الذي ينظمه، في إدانة صريحة:

الخمير في سوق التجارة رائج أرباحها والناس منها في جنون
أما الدعارة فهي زينة عصرنا أما الخنا فغدا شعار العالمين²⁰

وقد كانت بؤرة الرؤية الدينية عند الشاعر الجزائري؛ هي إيمانه بأن الإسلام هو السبيل لبلوغ منازل الرقي، ويتجسد ذلك في قول أحمد سحنون:

فأقيمي دينه يا أمة بلغت بالمصطفى أقصى مُناها
بلغت منزلة عالية لم تصلها أمة أخرى سواها²¹

وبرؤية دينية ذات مسحة صوفية، يتغزل الشاعر محمد سليمان بصفات الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله:

نعم شمائل خير الرسل تنعشنا طورا وتسكرنا صحوا من بعد فنا
علقت منذ الصبا روعي بها زمنا ولم أزل أرتقي معنى بها استكنا²²

وعلى نمط التقليد العربي القديم يطلب الجداوي السقيا لروضة الرسول صلى الله عليه وسلم:

سقاك الغمام الطل يا روضة الوفا وعاوذه من فيضه المتجدد
رجونا جناب الجود وهو محمد أمانني تقضي في الحياة وفي الغد²³

فالرؤية الدينية عند الشاعر الجزائري المعاصر تبلورت من خلال عقيدة تربّي عليها، وآمن بها، وكرّس اعتقاده بها، فعدها نمط حياة، وسلوكا يحتذيه ليصل إلى ما وعد الله تعالى به، وإن اختلفت ألوان هذه الرؤية عند الشعراء، بين تصوير للعقيدة الإسلامية وشرح لتفاصيلها، أو وسيلة لإصلاح المجتمع، أو تصوف يبتث العشق الإلهي.

2-3- الرؤية التأملية:

مثّل التأمل في تفاصيل الحياة، والواقع المعيش آلية يستمد من خلالها الشاعر الجزائري المعاصر القدرة على فهم علاقته بالوجود، والسبيل إلى الغوص في أبعاد ذاته، وقد تندرج تحت هذا العنوان أبعاد اجتماعية، ونفسية، وثقافية لخصتها رؤية الشاعر التأملية فيما يحيط به. وتعدّ صفة التأمل من أبرز خصائص المدرسة الرومانسية، وكذا من أهم ما تميّز به شعر المهجر على وجه الخصوص؛ من منطلق التركيز على أسرار الذات الإنسانية، وأبعاد الحياة سعيا منهم إلى إبراز المثل العليا، والعالم الأفضل. ولا ننفي أن بعض الشعر العربي القديم تلوّن برؤية تأملية (ونقصد به الشعر الديني)، خاصة مع الشعراء الذين اصطبغت أشعارهم بصفة الزهد والتصوف. وهم الذين أطالوا التدبّر في

قدرة الخالق، وتنقلوا بعقولهم، وقلوبهم قبل أبصارهم في ضروب الحياة وتفصيلها، زاهدين منصرفين عن ملذاتها، طلبا للتقرب من الخالق وحباً فيه.

ولم يبتعد الشعر الجزائري المعاصر عن هذه الرؤية التأملية التي تلبست بلباس ديني عند بعض الشعراء، وكان من ورائها الهدف الإصلاحي، من خلال التأمل في الواقع الذي يعيشه المجتمع الجزائري ومحاولة إصلاح ما فسد فيه، وهي عند شعراء آخرين تأمل، وتدبر في أسرار الكون التي تبرز من خلالها قدرة الخالق تعالى، في حين كانت الرؤية التأملية عند بعضهم ساعة سفر في الذات للبحث في أعماقها. وستوقف عند بعض الشواهد التي توضح ذلك. جمعت قصيدة: "أسطر الكون" لمحمد العيد آل خليفة مجموعة من الأسئلة التي أرهقت عقله وفؤاده، كان عنوانها الأبرز الظلم والاستبداد، وغياب العدل، والتي رسمت ملامح الغربة التي هي خلاصة رؤيته التأملية للكون الذي يعيش فيه. يقول:

أرى الكون قرآنا من الله منزلا	على الروح والأحداث أي عظات
وأقرأ من آي الشقاوة أسطرا	على صفحات الكون مرتسمات
فسطر عياييل أمضهم الطوى	عراة على لفح الأثير حفاة
وسطر أيامي يصطرخن توجعا	من البؤس لا يفتأن مكتئبات
وسطر يتامى مرهقين تكبهم	على جرف البلوى يد العثرات
وسطر شيوخ كالأهلة شيب	وهل شيبهم إلا نذير وفاة ²⁴

لقد صاحبت الرؤية التأملية لمحمد العيد مشاعر الحسرة، والألم، والحزن بسبب الملامح التي تلون بها العالم، وهي ملامح يسجلها فكر الشاعر، وتحتضنها روحه الغارقة في الحسرة، قبل أن يقع عليها بصره:

أردد طرفي سابرا كنه غورها	فيرجع طرفي خاسئ النظرات
تبارك ربّ العرش لست بملحد	أحاول طمس الحق بالشبهات
ولكنّ وجداني ينمّ بحسرة	إلى القلب أو يوحى له بشكاة ²⁵

امتزجت النظرة التأملية لحال الأمة الإسلامية، والإنسانية لدى الشاعر محمد العيد بحسّه الإصلاحي فكان يلامس الجرح ويسعى لعلاجه، ويتعجب من أن يكون هذا هو حال المسلم، وهو المدرك والمؤمن بمصيره:

وأعجب من هذا وذلك أنه لأحيائهم مهد وأمواتهم قبر²⁶

وكانت نظرة محمد العيد التأملية بصبغتها الدينية تنطلق من تساؤلات عن الحياة، وعن الوجود، لتصل في النهاية إلى حقيقة مفادها أن الدنيا ليست الدار الدائمة، وأن الانسان إلى زوال، فيقول في قصيدته "وعظ دقائق القلوب":

دقات قلب المرء قائمة له	عجل بما يبقى فإنك فاني
ما في حياتك للملاهي فسحة	إن الحياة دقائق وثواني

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها بضائع المعروف والإحسان²⁷

وتصبح الحياة في نظر الشاعر المتأمل لحظات تمر على شريط يشاهده، قد سُجِّلَتْ فيه الأعمال كما دُوِّنت الملدات والمعاصي، فيصور ذلك في " لوح الخيال":

فكأنِّي أرى القيامة قامت وأرى الخلق مهطعين حيالي
وكأنِّي أرى شريطك عرضاً فيه فُضَّت صحائف الأعمال
عظ به يا جماد من كان حياً فمقال الجماد فصلُ المقال²⁸

ويبدو الهدف الإصلاحي هو الغاية التي تتركز عليها الرؤية التأملية عند محمد العيد، ذلك أن التأمل في حقيقة الدنيا، وأحوالها، وكذا التأمل في شؤون الأمة، ومآلها يسعى إلى النهوض بالمسلمين من خلال العودة إلى تعاليم الإسلام، والزهد فيما يصرف الهمم عن ذلك. وهذا ما صورته قصائد: " لوح الخيال، أسطر الكون، وقفة على بحر الجزائر، يا ليل، يا فؤادي، الصحو، بين الشك والتشكي والقصائد كلها ذات مضامين تأملية إيمانية وفق صراع بين مادي طيني وروحي علوي ".²⁹

وإلى جانب الرؤية التأملية المحملة بمضمون الزهد، والنظرة الإصلاحية عند محمد العيد، نجدها عند شاعر كعثمان لوصيف تعطيه أملاً بغد أفضل، وتشعره بإمكانية البعث والحضور من مشهد الأسى، والألم الذي يعيشه، وإذا بنا كقراء نستحضر أسطورة العنقاء في قصيدته " سيمفونية البعث والحضور في خريطة الوطن المفقود".
سافر عثمان لوصيف بين الحاضر والماضي لوطنه المفقود، هذا الوطن المثخن بالجراح، ولكن التدبر والرؤية التأملية لهذا الواقع مبنية على فكرة واحدة، هي الأمل والرجاء، ومفادها أن الغد سيكون أفضل، وأن بعد الموت حياة، وبعد الظلام نور:

كذلك تخفي الشمس في كل ليلة وتبزع عند الصبح فوق البسيطة
مفارقة أدركت فيها بأنني سأدخل أفلاكي وأبدأ دورتي
ولي من وراء الليل دنيا تراقصت عليها عناقيد الشموس المضيئة³⁰

تنبعث الرؤية التأملية عند عثمان لوصيف من أسئلة تلفها وتحتضنها ذاته، ويفتّش عن إجابات لها في الأعماق، وإن كان ذلك البحث قد يبدو في جهات مختلفة من مشارق الأرض ومغاربها، فإنه في الحقيقة لم يخرج عن حدود ذاته، فهو ملتحم بالأرض والهواء، منغمس فيهما لا يكاد ينفصل عن مكونات هذا الفضاء:

وغربت كثران الرمال مفتشا عن الوطن المؤود تحت الدجنة
إلى أن تلاشت في الرمال أصابعي ولم ألق إلا تربة فوق تربة
وعدت إلى ذاتي لأنشد موطني فقالت أنا المنشود ثم أضمحل
وحين تشهتني الحقول أجبتها فغمّست أرضي والتحمت بجنتي³¹

تتلبّس الرؤية التأملية عند عثمان لوصيف في هذه القصيدة بنوع من الخوف، والقلق لواقع الوطن الذي يفتش عنه الشاعر، هو تأمل في واقع غلب عليه السواد، ولكنه لم ينتصر على إيمان منبته أعماق الشاعر، وعنوانه حتمية البعث بعد الموت.

وبالرؤية نفسها، يعلن الشاعر عبد المالك سعيدي في قصيدته "بوح في حضرة الورد" بداية الرحلة الكبرى:

يامن تسافر في شراييني

لقد أوقدت في ذاتي لهب

للرحلة الكبرى بدايات ينمّ بها الوفاء.³²

ولعل المشترك بين الشاعرين عثمان لوصيف، وعبد المالك سعيدي؛ هو أن الرؤية التأملية لديهما تنطلق من واقع يلفه الحزن، والأسى، والسواد ولكنها مفعمة بفكر المتأمل المتدبّر، وبالروح الشعرية الحاملة، يصلان —من خلال هذا— إلى حقيقة واحدة، هي بداية رحلة الانتصار على الواقع المرير، والانبعاث من تحت الرماد. ولأنّه واقع واحد يعيشه الشعراء الجزائريون، تهيمن مسحة الحيرة على مساحة الرؤية التأملية لشاعر آخر هو عمار بن لقرشي، الذي تأبى روحه أن تنام في سكناات الليل، وكيف لها أن تنام وقد استفاقت الحيرة، ومعها كل الرؤى التي تسافر باحثة عن ذاتها:

واستراحت في الغمام ثوري..

واستفاقت في الأنوار حيرتي...

أنا الذي ارتوت من كأسه الأحلام.....³³

وتبقى الرؤية التأملية عند الشاعر الجزائري مبنية على التساؤل، ويكون هذا الأخير حافزا على السفر، قد يكون سفرا بقطع المسافات الطويلة في رحاب الأرض الواسعة، وقد يكون تأرجحا بين أزمنة الحاضر والماضي، واستشرافا للمستقبل، وقد يكون بين سكناات وحركات العقل والفؤاد. ولكن الأكيد هو أن التأمل يمنح الشاعر الجزائري جواز سفر، يمكنه من الوصول إلى حيث بزغت التساؤلات:

هل يولد الجرح من أوردة السفر؟

هو انبثاق الرمل من فجوة السؤال المعطل

يشبّ الجرح مطليا بأصباغ المهجّرين.³⁴

هذا الحمل الذي أثقل روح الشاعر عمار بن لقرشي، نجده عند مصطفى الغماري في متاهات بين الحلم والإحباط، وكأن الرؤية التأملية عند هؤلاء الشعراء هي نداء تستيقظ من خلالها الجراح على واقع تكافح الروح من أجل العبور به إلى الغد المنشود:

آه..

وما تنفك في شفقي نداءات ودرب

ناء على عمق الظلام المر

يخفر فيه خطب

ويدور...³⁵

وبالأم نفسه، الذي يستخلصه الشاعر من تأمله في واقع يعايشه، نجد الغماري يرسم ملامح الأسي، والسواد، والضبابية لمستقبل الحضارة المعاصرة:

ما وراء الموج إلا ييس يحلم بالأفعى

ويروى بالفحيح

ما وراء الموج إلا ما يواريه الحجاب

رغبة جوعى³⁶

ويبقى الشاعر الجزائري في رحلته، ورؤيته التأملية بين زاهد في الدنيا وملذاتها، وبين راغب في إصلاح حال أمته وشعبه، أو حالم بغد أفضل، أو ناظم عن وضع لقه السواد. متقلبا بين رضوخ لحتمية الظروف، ونبض روحي يستجدي، ويدعو إلى التحرر، والتطلع إلى المستقبل.

خاتمة:

يستوعب النص الجزائري المعاصر حمولة الواقع الذي ينتمي إليه بكل أبعادها السياسية، والدينية، والتأملية. وبعد تحليل مجموعة من النصوص لشعراء جزائريين معاصرين، توصلنا إلى جملة من النتائج، وهي:

■ تشكّلت الرؤية السياسية لدى الشاعر الجزائري المعاصر من انتمائه العقيدي بدرجة أكبر. وتبنى من خلال ذلك انتماءه لقضايا أمته.

■ رسمت الثورة الجزائرية، وتضحيات الشعب الجزائري عقيدة سياسية آمن بها الشاعر الجزائري، وجسدها من خلال رؤيته السياسية.

■ احتضن الشاعر الجزائري مختلف القضايا الإنسانية العادلة، ودافع عن حقوق الشعوب في نيل حريتها.

■ تتمظهر في كثير من النصوص الشعرية فكرة الانتماء، ونزعة الإصلاح. ولعل السبب في ذلك يعود إلى تبني نمط الشعر التقليدي الذي كان مسائرا لفكرة التحرر، وتقديس البطولة إبان الاحتلال الفرنسي.

■ البحث عن فكرة التحرر، والتأمل، والتدين، لم يحرم أنساق الشعر الجزائري المعاصر من غنى التعبير الشعري بمقومات الأداء الفني الراقى.

■ احتل السؤال عن حقيقة الوجود، وشكل المستقبل، ومصير الوطن، وكذا الإنسانية أهم ملامح الرؤية التأملية لدى الشاعر الجزائري.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أدونيس، علي أحمد سعيد (1983)، الثابت والمتحول. صدمة الحداثة، ج3، دار العودة، بيروت.
- 2- بوقرورة، عمر (2004)، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، ط4، اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر.

- 3- الرفاعي، أحمد شرفي (2010)، الشعر الوطني الجزائري، دار الهدى، الجزائر.
 - 4- الركبي، عبد الله (2009)، الشعر الديني الجزائري الحديث، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر.
 - 5- رماني، إبراهيم (1992)، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
 - 6- زكريا، مفدي (2006)، اللهب المقدس، ط4، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر.
 - 7- سحنون، أحمد، (2007)، ديوان الشيخ أحمد سحنون، ط1، منشورات الحبر، الجزائر.
 - 8- سعدي، عبد المالك (2009)، سفر إلى مملكة المستحيل، ط1، منشورات أهل القلم، الجزائر.
 - 9- غالي، شكري (1991)، شعرنا الحديث إلى أين...؟، ط3، دار الشروق، الأردن.
 - 10- صبحي، محيي الدين (1988)، الرؤيا في شعر البياتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
 - 11- طه بدر، عبد المحسن (1984)، الرؤية والأداة نجيب محفوظ، ط3، دار المعارف، مصر.
 - 12- شراد شلتاغ، عبود (2003)، الغماري شاعر العقيدة الإسلامية، دار مدني، الجزائر.
 - 13- بن لقريشي، عمار (2015)، مقام الاغتراب، دار الروائع، الجزائر.
 - 14- لوصيف، عثمان (1988)، أعراس الملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
 - 15- محمد علي خليفة، محمد العيد، (1992)، الديوان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
 - 16- محمد القعود، عبد الرحمن (2002)، الإبهام في شعر الحداثة، عالم المعرفة، الكويت.
 - 17- ناصر، محمد (1985)، رمضان حمود. حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- الهوامش والإحالات:

¹ أدونيس علي أحمد سعيد: الثابت والمتحول. صدمة الحداثة، ج3، دار العودة، بيروت، ط4، 1983، ص 167

² المرجع نفسه، ص 168

³ محيي الدين صبحي: الرؤيا في شعر البياتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص22.

⁴ عبد الرحمن محمد القعود: الإبهام في شعر الحداثة، عالم المعرفة، الكويت، 2002، ص133.

⁵ غالي شكري: شعرنا الحديث إلى أين...؟، دار الشروق، ط3، 1991، ص18.

⁶ عبد الرحمن محمد القعود: الإبهام في شعر الحداثة، ص133.

⁷ عبد المحسن طه بدر: الرؤية والأداة نجيب محفوظ، دار المعارف، ط3، 1984، ص16.

⁸ إبراهيم رماني: الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1992، ص107.

⁹ أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، دار الهدى، الجزائر، دط، 2010، ص71.

¹⁰ محمد ناصر: رمضان حمود. حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985، ص166.

¹¹ أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص72.

¹² أحمد شرفي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص77.

¹³ مفدي زكريا: اللهب المقدس، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط4، 2006، ص140.

¹⁴ مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص122.

¹⁵ محمد العيد محمد علي خليفة: الديوان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط3، 1992، ص334.

- 16 المصدر نفسه، ص 179.
- 17 أحمد سحنون: ديوان الشيخ أحمد سحنون، ص 361.
- 18 المصدر نفسه، ص 341.
- 19 أحمد شرقي الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، ص 52.
- 20 عبد الله الركبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ج 1، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2009، ص 102.
- 21 أحمد سحنون: ديوان الشيخ أحمد سحنون، ص 336.
- 22 عبد الله الركبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ج 1، ص 57.
- 23 المرجع نفسه، ص 73.
- 24 محمد العيد محمد علي خليفة: الديوان، ص 10.
- 25 محمد العيد محمد علي خليفة: الديوان، ص 11.
- 26 المصدر نفسه، ص 18.
- 27 محمد العيد محمد علي خليفة: الديوان، ص 277.
- 28 المصدر نفسه، ص 24.
- 29 عمر بوقرورة: دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط 1، 2004، ص 132.
- 30 عثمان لوصيف: أعراس الملح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1988، ص 42.
- 31 عثمان لوصيف: أعراس الملح، ص 43.
- 32 عبد المالك سعيدي: سفر إلى مملكة المستحيل، منشورات أهل القلم، الجزائر، ط 1، 2009، ص 7.
- 33 عمار بن لقرشي: مقام الاغتراب، دار الروائع، الجزائر، ط 1، 2015، ص 38.
- 34 المصدر نفسه، ص 40.
- 35 شلتاغ عبود شراد: الغماري شاعر العقيدة الإسلامية، دار مدني، الجزائر، دط، 2003، ص 95.
- 36 المرجع نفسه، ص 108.